

مفهوم النفس في السياق الإسلامي

تأليف

مدرس الدكتور محمد لوتي

فبراير 2, 2026

الاقتباس الموصى به

مدرس الدكتور محمد لوتي (2026). مفهوم النفس في السياق الإسلامي. عرب سايكولوجي. تم الاسترجاع من <https://arabpsychology.com/?p=115433>

مقدمة: مفهوم النفس في السياق الإسلامي

يمثل علم النفس العام في التراث الإسلامي مجالاً معرفياً عميقاً ومتكاملاً، حيث لم يكن يُنظر إلى دراسة النفس (الذات أو الروح) كعلم منفصل بذاته، بل كجزء لا يتجزأ من الفلسفة، واللاهوت، والطب، والأخلاق. وقد قام العلماء المسلمون، وعلى رأسهم فلاسفة وعلماء عصر الازدهار، بوضع أطر نظرية متقدمة لفهم طبيعة الإنسان، ودوافعه، وإدراكه، وسلوكه، مستفيدين من الموروث اليوناني القديم (خاصة الأفلاطونية والأرسطية) ومصهرين إياه في بوتقة الوحي والنصوص المقدسة. إن هذا الدمج الفريد أدى إلى نشأة علم نفس يتسم بالشمولية، حيث يربط مصير الفرد الروحي والغاية الأخلاقية بآليات الإدراك والعقل، معتبراً أن الصحة النفسية الحقيقية تكمن في تحقيق التوازن بين متطلبات الجسد ومقتضيات الروح، وهو ما يمثل ركيزة أساسية في فهم الكينونة الإنسانية في هذا التراث.

تعتبر مفاهيم النفس والروح والعقل هي اللبنة الأساسية التي ارتكز عليها البناء النفسي في الفكر الإسلامي. فـ "النفس" هي محور الدراسات النفسية، وتشير إلى الذات الواعية الحاملة للصفات السلوكية والأخلاقية، وهي التي تخضع للتربية والتزكية، وتتفاوت في درجاتها من الأمانة بالسوء إلى المطمئنة. أما "الروح" فتُفهم غالباً على أنها جوهر إلهي أو نفخة علوية تمثل مبدأ الحياة والاتصال بالخالق، وتظل طبيعتها غامضة ومحاطة بالقدسية في كثير من الأحيان. في حين أن "العقل" يمثل القوة الإدراكية والفكرية العليا، وهو الأداة التي تمكن الإنسان من التمييز والاستدلال، والوصول إلى الحقائق الكلية، ويُعد العقل الفعال في الفلسفة الإسلامية المرحلة النهائية للتطور العقلي، مما يوضح التعقيد المنهجي الذي ميز هذه الدراسات النفسية القديمة.

إن أهمية هذا التراث تكمن في أنه لم يكتفِ بالوصف النظري لطبيعة النفس، بل قدم أيضاً مناهج عملية ومفصلة للتعامل مع العلل النفسية والسلوكية، مؤسساً ما يمكن تسميته بعلم النفس التطبيقي أو الأخلاقي. لقد اعتبر الفلاسفة والأطباء المسلمون، مثل ابن سينا والرازي، أن الأمراض النفسية هي في جوهرها اختلالات في توازن القوى النفسية أو الأخلاط الجسدية، وبالتالي تتطلب علاجاً مزدوجاً يشمل الإصلاح الروحي والتدخل الطبي. هذه الرؤية المتكاملة، التي سبقت ظهور التحليل النفسي الحديث بقرون، تؤكد على أن علم النفس الإسلامي كان يهدف إلى تحقيق الكمال الإنساني من خلال تهذيب النفس والارتقاء بها من مستويات الغريزة الدنيا إلى مستويات الإدراك العقلي والأخلاقي الأعلى.

الأسس الفلسفية والنفسية المبكرة

لعبت الترجمات الواسعة للفلسفة اليونانية، التي تمت في العصر العباسي، دوراً محورياً في تشكيل الأسس الفلسفية والنفسية المبكرة في التراث الإسلامي، حيث استوعب المفكرون المسلمون أعمال أرسطو، خاصة كتابه "في النفس"، وأعمال أفلاطون وأفلاطون (الأفلاطونية المحدثة)، وقاموا بتكييف هذه الأفكار لتتوافق مع الرؤية الكونية الإسلامية. لم يكن هذا الاستيعاب مجرد نقل، بل كان عملية نقد وإثراء، أدت إلى تطوير نظريات متماسكة تفسر العلاقة بين الجسد والنفس، وتحدد قوى النفس وموقعها في سلم الوجود. وقد تميزت هذه المرحلة بالتركيز على الجانب العقلي والمعرفي للنفس، مع إيلاء اهتمام خاص لكيفية اكتساب المعرفة والوصول إلى الحقيقة المطلقة، مما وضع الأساس لظهور مدارس فكرية متنوعة في علم النفس الفلسفي الإسلامي.

يُعد أبو يوسف يعقوب الكندي (ت. نحو 873م) من أوائل من أسسوا لعلم النفس الفلسفي المستقل، حيث تناول العلاقة بين العقل والمادة، وركز على دور العقل في تخليص النفس من شوائب الجسد. أما أبو نصر الفارابي (ت. 950م)، فقد قدم نموذجاً متطوراً للنفس، حيث ربط علم النفس بالنظرية السياسية والأخلاقية، مؤكداً أن وظيفة النفس الأساسية هي السعي نحو السعادة القصوى، والتي لا تتحقق إلا بالكمال العقلي والأخلاقي. قسم الفارابي قوى النفس إلى القوة المغذية، والقوة الحاسة، والقوة المتخيلة، والقوة النزوعية، وأخيراً القوة الناطقة (العاقلة)، موضحاً تسلسلاً هرمياً دقيقاً لوظائف النفس وكيفية تفاعلها مع العالم الخارجي والداخلي، مما يمثل خطوة منهجية هامة في تحديد مجالات علم النفس.

كما أن الفارابي، في سياق نظريته للفيض (الصدور)، ربط النفس البشرية بالعقل الفعال، وهو مبدأ وجودي كوني يمثل مصدر المعارف الكلية. ووفقاً لنظريته، فإن النفس البشرية تسعى للاتصال بهذا العقل الفعال من خلال التجريد والتعقل، وعندما تنجح في ذلك، فإنها تحقق أقصى درجات الكمال والسعادة. هذه النظرة لم تكن مجرد تحليل نظري، بل كانت تحمل دلالات علاجية عميقة، إذ تشير إلى أن الانحراف النفسي والسلوكي ينبع من سيطرة القوى الدنيا (الشهوانية والغضبية) على القوة العاقلة، وأن العلاج يتمثل في إعادة ترتيب هذا التسلسل الهرمي. هذا التركيز على دور التجريد العقلي كمسار للكمال النفسي كان له صدى واسع في أعمال الفلاسفة اللاحقين، خاصة ابن سينا.

نظرية النفس عند ابن سينا والتصنيف الهراركي

يُعتبر أبو علي الحسين بن سينا (ت. 1037م)، في كتابه "الشفاء" و"القانون في الطب"، المرجعية الأكثر تأثيراً في صياغة نظرية النفس في التراث الإسلامي، حيث قدم تصنيفاً هرمياً دقيقاً لقوى النفس، وأرسى أساساً قوياً لربط علم النفس بالطب والفسولوجيا. لقد ميز ابن سينا بين ثلاثة أنواع رئيسية للنفس: النفس النباتية، والنفس الحيوانية، والنفس الناطقة (البشرية). النفس النباتية تشترك فيها جميع الكائنات الحية وتختص بوظائف النمو والتغذية والتوليد. النفس الحيوانية تضيف إليها وظائف الحركة الإرادية والإدراك الحسي (الحواس الخمس الظاهرة). أما النفس الناطقة، فهي الجوهر الخاص بالإنسان، وهي قوة مجردة لا تتأثر بالفناء الجسدي، ووظيفتها الأساسية هي التعقل والاستدلال والوصول إلى الحقائق.

لقد تعمق ابن سينا في تحليل قوى النفس الحيوانية، مقسماً الإدراك إلى حواس ظاهرة وحواس باطنة، وهي نقطة تحول منهجية في علم النفس الإدراكي. الحواس الباطنة تشمل: الحس المشترك (الذي يجمع مدخلات الحواس الخمس)، والخيال (الذي يحفظ صور المحسوسات بعد غيابها)، والوهم (وهي القوة التي تدرك المعاني غير الحسية مثل العداوة أو الصداقة)، والقوة الحافظة (للمعاني الوهمية)، والقوة المتصرفة (التي تدمج الصور والمعاني لتكوين أفكار جديدة). هذا التقسيم الدقيق يوضح كيف أن الفكر الإسلامي القديم قد وضع إطاراً شاملاً للعمليات المعرفية الداخلية، مما يماثل مفهوم العمليات المعرفية العليا في علم النفس الحديث.

إحدى أهم مساهمات ابن سينا في علم النفس الفلسفي هي تجربة "الرجل الطائر" (أو الإنسان المعلق)، وهي تجربة فكرية تهدف إلى إثبات أن النفس جوهر مستقل عن الجسد. يتخيل ابن سينا إنساناً خلق فجأة وهو كامل النمو، معلقاً في الهواء، وعيناه معصوبتان، وأطرافه مفصولة، بحيث لا يتلقى أي مدخلات حسية خارجية. ومع ذلك، يؤكد ابن سينا أن هذا الإنسان سيدرك ذاته ووجوده، مما يدل على أن إدراك الذات (الوعي) ليس ناتجاً عن الحواس أو الجسد، بل هو خاصية جوهرية للنفس الناطقة. هذا التأكيد على الوعي الذاتي كدليل على تجرد النفس يمثل حجة قوية ضد المادية، وكان له تأثير كبير على الفلسفة الغربية، ويُعد من أوائل التصورات الفلسفية للـ "أنا" الواعية.

العقل والإدراك في الفكر الإسلامي

يحتل مفهوم العقل مكانة مركزية في علم النفس الإسلامي، حيث أنه القوة التي تمنح الإنسان هويته الحقيقية وتميزه عن باقي الكائنات، وهو الأداة الأساسية لتحقيق الكمال الأخلاقي والمعرفي. يميز الفلاسفة المسلمون، وخاصة الفارابي وابن سينا، بين مستويات مختلفة للعقل، تبدأ بالعقل الهيولاني (العقل بالقوة)، وهو الاستعداد الفطري للتعقل، وتندرج صعوداً عبر العقل بالملكة، ثم العقل بالفعل (عندما يكتسب المعارف البديهية)، وصولاً إلى العقل المستفاد. هذا الأخير يمثل مرحلة الاتصال بالعقل الفعال (المفارق)، وهو لحظة الإشراق التي يتم فيها تلقي المعارف الكلية والمطلقة دون الحاجة إلى جهد استدلالي، مما يوضح العلاقة الوثيقة بين نظرية المعرفة وعلم النفس في هذا التراث.

الإدراك لا يقتصر في الفكر الإسلامي على مجرد استقبال المعلومات الحسية، بل هو عملية نشطة ومعقدة تتضمن المعالجة الداخلية للمعلومات عبر القوى الباطنة. القوة الوهمية، التي وصفها ابن سينا، تلعب دوراً حاسماً في ربط الجزئيات الحسية

بالمعاني غير الحسية، وهي المسؤولة عن الحكم الفطري والسريع الذي يُصدره الحيوان والإنسان على الأشياء. على سبيل المثال، إدراك الشاة لمعنى العداوة في الذئب ليس إدراكاً حسيّاً مباشراً، بل وهمي. وفي الإنسان، تتولى القوة العاقلة مهمة فحص هذه الأحكام الوهمية وتصحيحها، لضمان أن يكون الإدراك مبنياً على الاستدلال المنطقي وليس مجرد الانطباعات العابرة، وهذا يمثل الأساس للتمييز بين المعرفة الصحيحة والخاطئة.

إن عملية الإدراك في التراث الإسلامي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمسألة الخيال. فالخيال ليس مجرد مخزن للصور، بل هو قوة مبدعة يمكن أن تكون مصدراً للخطأ إذا لم تخضع لرقابة العقل، أو يمكن أن تكون قناة للإلهام والوحي عندما تتطهر النفس. وقد نوقش دور الخيال في تفسير الأحلام والرؤى، وكيف يمكن للنفس أن تتلقى إشارات أو معارف معينة عندما تكون القوى الحسية والجسدية في حالة سكون. هذا الجانب يفتح الباب أمام علم نفس يتجاوز الحدود المادية، ويدمج الأبعاد الروحية والحدسية في عملية فهم المعرفة البشرية، مؤكداً أن الإدراك الكامل للنفس يتطلب تفعيل جميع قواها، الظاهرة والباطنة، تحت قيادة العقل الناطق.

الجانب الأخلاقي والسلوكي: علم النفس الغزالي

بينما ركز الفلاسفة على الجانب النظري والعقلي للنفس، جاء أبو حامد الغزالي (ت. 1111م) ليحدث تحولاً كبيراً، موجهاً علم النفس نحو الجانب العملي والأخلاقي، ومدمجاً إياه بشكل كامل في إطار التصوف والتربية الروحية، خاصة في موسوعته الشهيرة "إحياء علوم الدين". بالنسبة للغزالي، الهدف الأساسي لعلم النفس هو "تزكية النفس" (تطهيرها) والوصول بها إلى حالة الاستقامة الأخلاقية التي تضمن السعادة في الدارين. لقد نقل الغزالي الاهتمام من مجرد تصنيف قوى النفس إلى دراسة أمراضها وكيفية علاجها، مركزاً على دور النية والسلوك الإرادي في تحديد مصير الفرد النفسي والروحي.

نظرية الغزالي عن النفس تقوم على فكرة الصراع الداخلي المستمر بين القوى المتنازعة، وهو ما يشبه مفهوم الأنا والأنا الدنيا في التحليل النفسي الحديث، ولكنه مؤطر دينياً وأخلاقياً. يصف الغزالي النفس بثلاثة مستويات رئيسية مستمدة من القرآن: النفس الأمارة بالسوء (التي تدفع نحو الشهوات والشور)، والنفس اللوامة (التي تلوم صاحبها على أخطائه وتصارع الشهوات)، والنفس المطمئنة (التي وصلت إلى حالة السلام الداخلي والرضا والثبات الأخلاقي). هذا التصنيف لم يكن مجرد وصف، بل كان خريطة طريق للنمو النفسي والروحي، يوضح المراحل التي يجب على السالك اجتيازها لتحقيق التوازن النفسي.

كما أن الغزالي وضع أساساً قوياً لعلم أمراض القلوب، حيث اعتبر أن الصفات السلبية مثل الحسد، والكبر، والرياء، هي بمثابة أمراض نفسية حقيقية تفسد الفرد والمجتمع. وقد قدم تحليلات عميقة لأسباب هذه الأمراض، مشدداً على أنها تنبع من التعلق المفرط بالدنيا وسيطرة القوى الغضبية والشهوانية على العقل والدين. منهج العلاج عند الغزالي كان يعتمد على "المجاهدة" و"الرياضة"، وهي أساليب علاجية سلوكية ومعرفية تهدف إلى استبدال الصفات الذميمة بالصفات الحميدة، مثل استبدال الكبر بالتواضع، والحسد بالنصيحة، مؤكداً على أن تغيير السلوك يتطلب جهداً إرادياً مستمراً ومراقبة دقيقة للنوايا والأفعال، وهو ما يمثل منهجاً علاجياً تكاملياً يجمع بين البعد الأخلاقي والمعرفي.

الدوافع والعواطف: تحليل السلوك البشري

أدرك علماء النفس في التراث الإسلامي أهمية الدوافع والعواطف كقوى محرّكة للسلوك البشري، وقاموا بتحليلها ضمن إطار القوى النزوعية (القوة الشهوانية والقوة الغضبية). لم يكن الهدف هو قمع هذه الدوافع، بل تهذيبها وتوجيهها نحو الخير والاعتدال. اعتبروا أن القوة الشهوانية هي دافع البقاء والتكاثر (الجذب نحو الذات)، بينما القوة الغضبية هي دافع الدفاع والمواجهة (دفع المؤذيات). وعندما تعمل هاتان القوتان بتوجيه من العقل، فإنهما تنتجان فضائل مثل العفة والشجاعة، أما إذا انحرقتا، فإنهما تؤديان إلى الرذائل مثل الشره والتهور أو الجبن.

تناول المفكرون المسلمون مجموعة واسعة من العواطف الثانوية، مثل الحب (المحبة)، والخوف (الخوف)، والرجاء (الأمل)، والحزن، والفرح، وربطوها بالحالة المعرفية والروحية للفرد. على سبيل المثال، يُنظر إلى الخوف والرجاء كآليتين دافعتين قويتين في علم النفس الديني، حيث يدفع الخوف من العقاب أو الفشل الفرد إلى تجنب السلوكيات السلبية، بينما يدفع الرجاء في الثواب أو النجاح الفرد إلى بذل الجهد الإيجابي. إن التوازن بين هذين الدافعين، الذي يُعرف بـ "الخوف والرجاء"، يُعد مؤشراً على الصحة النفسية والروحية، ويضمن عدم الوقوع في اليأس أو الغرور المفرط، مما يوضح فهماً عميقاً لديناميكيات التحفيز.

في سياق تحليل السلوك البشري، أكد علماء الأخلاق مثل ابن مسكويه (ت. 1030م) في كتابه "تهذيب الأخلاق" على أن الفضيلة هي حالة وسطية بين طرفي إفراط وتفريط. على سبيل المثال، فضيلة الكرم هي الوسط بين الإسراف والتقتير، وفضيلة الشجاعة هي الوسط بين التهور والجبن. هذه النظرية، المستمدة من أخلاق أرسطو ومصاغة إسلامياً، توفر إطاراً سلوكياً لتقييم الصحة النفسية، حيث أن الفرد المتوازن نفسياً هو من ينجح في توجيه دوافعه وعواطفه بشكل معتدل ومنطقي، بعيداً عن التطرف، وهذا الاعتدال هو في جوهره حالة من الانسجام الداخلي والخارجي.

مناهج العلاج النفسي والتربية الروحية

لم يقتصر التراث الإسلامي على التشخيص، بل قدم مناهج علاجية متكاملة للعلل النفسية، والتي يمكن تقسيمها إلى مناهج معرفية سلوكية وأخرى روحية تأملية. يعتبر أبو بكر الرازي (ت. 925م) من أوائل من كتبوا في العلاج النفسي بشكل واضح، مشدداً على استخدام العقل والإقناع المنطقي (العلاج المعرفي) لتصحيح الأفكار الخاطئة والمخاوف غير المبررة. وقد أشار الرازي إلى أهمية "الإيحاء" و"قوة الأمل" في شفاء المرضى، مؤكداً على العلاقة الوثيقة بين الحالة الذهنية والجسدية، وهو ما يسبق بكثير مفهوم الطب النفسجسدي.

أما المنهج الصوفي، الذي بلوره الغزالي بشكل خاص، فقد ركز على التربية الروحية (الرياضة الروحية) كوسيلة أساسية لتطهير النفس من أمراضها. تشمل هذه الرياضة ممارسات عملية مثل المجاهدة (مقاومة الشهوات والأهواء)، والمحاسبة (المراجعة اليومية للسلوك والنوايا)، والمراقبة (الوعي المستمر بوجود الذات أمام الخالق). هذه التقنيات تهدف إلى تغيير العادات السلوكية والنفسية الضارة تدريجياً، وتحويل النفس من حالة الخضوع للغريزة إلى حالة السيطرة العقلية والأخلاقية، مما يعد شكلاً مبكراً ومكثفاً من العلاج السلوكي المعرفي القائم على البصيرة الذاتية.

بالإضافة إلى ذلك، تم استخدام تقنيات تأملية وروحية عميقة، مثل الذكر (التكرار المستمر لأسماء الله أو العبارات الدينية) والفكر (التأمل العميق في المخلوقات أو الذات). هذه الممارسات لا تهدف فقط إلى التقرب الديني، بل لها وظيفة نفسية واضحة تتمثل في تهدئة القوى الداخلية المضطربة، وتركيز الانتباه، وتوليد حالة من السكينة والطمأنينة (النفس المطمئنة). كان يُنظر إلى الذكر كطريقة فعالة لتحويل الانتباه بعيداً عن الهموم الدنيوية والأفكار الوسواسية، وإعادة توجيه الطاقة النفسية نحو هدف أسمى، مما يؤدي إلى علاج اضطرابات القلق والتوتر.

خاتمة: الأثر والتأثير المعاصر

إن علم النفس العام في التراث الإسلامي لم يكن مجرد اجترار لأفكار القدماء، بل كان نظاماً فكرياً متكاملماً أنتج نظريات رائدة في الإدراك، والوعي الذاتي، وديناميكيات الشخصية، والعلاج السلوكي والأخلاقي. لقد انتقلت هذه الأفكار، خاصة عبر الترجمات اللاتينية لأعمال ابن سينا وابن رشد، إلى أوروبا في العصور الوسطى، وأثرت بشكل مباشر في الفلسفة الغربية وعلم النفس المبكر. نظرية ابن سينا عن النفس وتقسيمها، وتحليله للحواس الباطنة، أصبحت جزءاً أساسياً من المناهج الجامعية الأوروبية لعدة قرون، مما يؤكد على الأثر التاريخي العميق لهذا التراث.

في العصر الحديث، اكتسبت هذه النظريات أهمية متجددة، خاصة في مجال علم النفس العابر للشخصية (Transpersonal Psychology) وعلم النفس الإنساني، حيث تتفق الرؤية الإسلامية حول ضرورة دمج الأبعاد الروحية والأخلاقية في فهم الصحة النفسية مع الدعوات الحديثة لتجاوز النماذج المادية البحتة. إن مفهوم تزكية النفس، والتركيز على الصراع بين الذات العليا والدنيا، والمنهج العلاجي القائم على تغيير القيم، تجد تطبيقاتها المعاصرة في العلاج المعرفي السلوكي القائم على اليقظة الروحية (Mindfulness) والعلاج المعتمد على المعنى (Logotherapy)، مما يظهر صلاحية هذه النماذج القديمة للاستخدام في سياقات جديدة.

في الختام، يمثل علم النفس العام في التراث الإسلامي كنزاً معرفياً يقدم إطاراً شمولياً لفهم الإنسان، حيث يُنظر إليه ليس فقط ككائن بيولوجي أو اجتماعي، بل ككائن روحي وأخلاقي يسعى نحو الكمال. إن الجمع بين الدقة الفلسفية (عند ابن سينا) والعمق الأخلاقي التطبيقي (عند الغزالي) يوفر نموذجاً متوازناً يربط بين العقل والقلب والسلوك. تبقى هذه النظريات مصدراً غنياً للباحثين المعاصرين الذين يسعون إلى تطوير نماذج نفسية أكثر تكاملاً وإنسانية، تساهم في تعزيز الصحة النفسية وتحقيق السعادة الحقيقية القائمة على الانسجام الداخلي والالتزام الأخلاقي.

ARABPSYCHOLOGY.COM